

الحياة الاقتصادية في قرطاجة: بين هيمنة التجارة البحرية وتكامل الزراعة والصناعة

The Economic Life of Carthage: Between the Dominance of Maritime Trade and the Integration of Agriculture and Industry

أحمد سايج مرزوق *

¹كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تيبازة، الجزائر.

تاريخ الاستلام: 2026/04/07، تاريخ القبول: 2026/04/28، تاريخ النشر: 2026/04/30

ملخص:

تُعدّ قرطاجة واحدة من أبرز القوى الاقتصادية في العالم القديم، حيث اعتمدت حياتها الاقتصادية بشكل رئيسي على التجارة البحرية بفضل موقعها الاستراتيجي على سواحل البحر المتوسط. سيطر القرطاجيون على طرق تجارية واسعة ربطت بين شمال إفريقيا، جنوب أوروبا، وغرب آسيا، مما مكّهم من تبادل السلع مثل المعادن، الأقمشة، الحبوب، والزيت. إلى جانب التجارة، لعبت الزراعة دورًا مهمًا في اقتصاد قرطاجة، خاصة في المناطق المحيطة بها، حيث طوّر القرطاجيون تقنيات زراعية متقدمة وأسهموا في تحسين إنتاج الزيتون والحبوب. كما ازدهرت الصناعات الحرفية مثل صناعة السفن، الفخار، والنسيج. اعتمدت قرطاجة أيضًا على نظام اقتصادي منظم يشمل الضرائب والتجارة المنظمة، إضافة إلى استخدام العملة في المعاملات، ما يعكس مستوى متقدمًا من التنظيم الاقتصادي. بشكل عام، شكّلت القوة البحرية والتجارية أساس ازدهار قرطاجة، وأسهمت في جعلها منافسًا رئيسيًا لروما في البحر المتوسط حتى اندلاع الحروب البونيقية التي انتهت بسقوطها. الكلمات المفتاحية: قرطاجة، التجارة، البحر، الاقتصاد، الطرق، السفن.

Abstract:

Carthage was one of the most prominent economic powers of the ancient world. Its economy relied mainly on maritime trade, thanks to its strategic location on the Mediterranean coast. The Carthaginians controlled extensive trade routes connecting North Africa, Southern Europe, and Western Asia, enabling the exchange of goods such as metals, textiles, grains, and oils.

In addition to trade, agriculture played an important role in Carthage's economy, especially in the surrounding regions. The Carthaginians developed advanced agricultural techniques and

contributed to improving the production of olives and grains. Craft industries also flourished, including shipbuilding, pottery, and textiles.

Carthage also relied on an organized economic system that included taxation and regulated trade, as well as the use of currency in transactions, reflecting a relatively advanced level of economic organization.

Overall, maritime and commercial power formed the foundation of Carthage's prosperity, making it a major rival to Rome in the Mediterranean until the outbreak of the Punic Wars, which ultimately led to its fall.

Keywords: Carthage, Trade, Sea, Economy, Ships .

مقدمة :

شهد حوض البحر الأبيض المتوسط خلال العصور القديمة بروز عدد من الحضارات التي لعبت دورًا محوريًا في تشكيل ملامح التاريخ الاقتصادي والسياسي للمنطقة، وتُعدّ قرطاجة من بين أبرز هذه القوى التي استطاعت أن تفرض حضورها بقوة بفضل قدراتها التنظيمية وموقعها الجغرافي المتميز. فقد نشأت قرطاجة على الساحل الشمالي لإفريقيا، في نقطة استراتيجية جعلتها حلقة وصل بين مختلف الحضارات المتوسطية، الأمر الذي ساعدها على التحول تدريجيًا إلى مركز تجاري نشط ومؤثر.

لقد ارتكزت الحياة الاقتصادية في قرطاجة على مجموعة من الدعائم الأساسية، يأتي في مقدمتها النشاط التجاري البحري الذي مكّن القرطاجيين من السيطرة على أهم الطرق التجارية في غرب البحر المتوسط، وربط مناطق متعددة تشمل شمال إفريقيا، شبه الجزيرة الإيبيرية، وصقلية، وصولًا إلى بعض مناطق الشرق. وقد ساهم هذا التوسع التجاري في تدفق السلع والثروات، مثل المعادن، الحبوب، الأقمشة، والزيت، مما أدى إلى ازدهار اقتصادي ملحوظ. ولم يقتصر الأمر على التجارة فقط، بل دعمتها أنشطة اقتصادية أخرى، كالزراعة التي عرفت تطورًا ملحوظًا بفضل اعتماد تقنيات زراعية متقدمة، إضافة إلى الصناعات الحرفية التي شملت صناعة السفن، الفخار، والنسيج.

كما تميز الاقتصاد القرطاجي بدرجة عالية من التنظيم، حيث اعتمد على نظام دقيق لإدارة المبادلات التجارية، وتحصيل الضرائب، وتنظيم الموانئ، إلى جانب استخدام العملة في المعاملات، وهو ما يعكس تطورًا مؤسسيًا واضحًا. وقد مكّنت هذه العوامل مجتمعة قرطاجة من بناء قوة اقتصادية بحرية جعلتها منافسًا مباشرًا لقوى كبرى في ذلك العصر، وعلى رأسها روما، وهو ما تجلّى لاحقًا في اندلاع الحروب البونيقية التي كانت في جوهرها صراعًا على النفوذ الاقتصادي والسيطرة على طرق التجارة.

غير أنّ هذا التفوق الاقتصادي يطرح جملة من التساؤلات العلمية التي تستدعي الدراسة والتحليل، خاصة فيما يتعلق بطبيعة هذا النظام الاقتصادي ومركزاته الحقيقية. فهل كان ازدهار قرطاجة قائمًا أساسًا على التجارة البحرية وحدها، أم أن هناك توازنًا بين مختلف القطاعات الاقتصادية؟ وما مدى مساهمة الفلاحة والصناعة في دعم هذا النمو؟ وكيف أثر الموقع الجغرافي في رسم ملامح هذا النشاط الاقتصادي وتوجيهه؟

ومن هذا المنطلق، تتمحور إشكالية هذا الموضوع حول: إلى أي مدى ساهمت العوامل الجغرافية والتجارية في بناء القوة الاقتصادية لقرطاجة، وما هو دور الأنشطة الاقتصادية الأخرى في تحقيق هذا الازدهار واستمراره؟

1- الزراعة بعد معركة هيميرا:

اعتنى القرطاجيون بالزراعة وامتهنوها كنشاط رئيسي الى جانب التجارة، فعلموا على تطويرها أفقيا وعموديا مما ساهم في نمو المزروعات على سهول سواحلها فبرعوا في انتاج الخضر والفواكه خاصة الرمان والزيتون والكروم فضلا على انتاج كميات كبيرة من الزيتون والخبز (مادلين هورس، 1981، ص 89)، علما أن الاهتمام بالزراعة قد تأخر الاهتمام بها إلى غاية عام 480 ق.م، فبعد هزيمة قرطاجة في معركة هيميرا في مواجهة الإغريق تراجع الاهتمام بالتجارة البحرية وتم التوسع في النشاط الفلاحي، حيث تم العناية بالأراضي الخصبة بل واستصلاح أراض جديدة لزيادة حجم الإنتاج (محمد الهادي حارش، 1995، ص 87)، وحسب بوليبيوس فإن قرطاجة بعد عام 480 ق.م قامت بسلسلة من التوسعات في على الأراضي الإفريقية مما أدى الى امتلاكها لأراضي زراعية شاسعة جدا، فخلال النصف الثاني من القرن الثالث ق.م امتدت هذه الأراضي على مجال جغرافي واسع امتدت من معبد الأخوين فليينوس شرقا الى أعمدة هرقل غربا (Polybe, 1887, III, 30, 2).

لم يكتفي القرطاجيون بالتوسع الأفقي بتوسيع مساحة الأراضي الزراعية بل عمدوا الى التطور العمودي من خلال إدخال تقنيات جديدة في الإنتاج الزراعي، والتي ساهمت في وفرة المنتجات على اختلاف أنواعها سواء ما هو محلي أو ما أدخل على المنطقة كالتفاح البوني (Malum Pinicum) (الشاذلي بوروينة، 1999، ص 253)، ومقارنة بمختلف مناطق العالم القديم فإن الزراعة القرطاجية كانت أهم تجربة زراعية، لاسيما من خلال تطبيق إرشادات المهندسين في مجال الزراعة على غرار ما جاء في كتاب "الفلاحة" المهندس القرطاجي ماغون (حسام أبو سعدة، 1998، ص 117)، وكذلك الاعتماد على ما ألفه المهندس الفلاحي أميلكار والذي ذاع صيته في المجال الزراعي (اصطيفان اكصيل، 2017، ص 10). وننوه الى أن الرومان بعد تحطيم قرطاجة تم الاستحواذ على أهم هذه الكتب التي حولت الى روما لترجمتها والاستفادة من التجربة الزراعية القرطاجية.

ونظرا لهذه المجهودات فإن قرطاجة بلغت درجة كبيرة من التطور الزراعي والذي يظهر في المساحات الزراعية الواسعة وكميات الإنتاج الكبيرة، حيث تم انتاج كميات كبيرة من الكروم والزيتون ومنتجات أخرى، كما امتلكت قرطاجة حدائق وبساتين ومساحات رعوية بها قطعان بأعداد هائلة من الغنم والبقر والخيول (اصطيفان اكصيل، 2017، ص 25)، فخلال نهاية القرن الرابع ق.م نزل جنود أغاتوكليس بسواحل شمال افريقيا فاتجهوا صوب الأراضي القرطاجية، فأصيبوا بالدهشة لما شاهدوه من خيرات كثيرة وتطور زراعي لم يروا مثله مثيل (اصطيفان اكصيل، 2017، ص 8)، كما أن الحدائق والبساتين والحقول احتوت على عدة أبار للري مجهزة بتقنيات الري وعلى جانبي الطرق تتوزع المنازل الريفية وتعكس ثراء أصحابها نظرا لتوفرها على مختلف متطلبات الحياة (حسام أبو سعدة، 1998، ص 121).

2- الصناعة عصب التجارة القرطاجية:

اعتبرت قرطاجة من المدينة الصناعية الأولى ضمن مدن ودول العالم القديم (جان مازيل، 1998، ص 164) حيث اشتمل النشاط الصناعي على عدة ميادين، وكان ممتني الحرف الصناعية من المواطنين الأحرار لكنهم لم يرتقوا اجتماعيا الى

طبقة الأشراف (جان مازيل، 1998، ص 166)، وبرع الحرفيون في صنع مختلف المنتجات النسيجية والفخارية والعاجية فضلا على الصناعات المعدنية من النحاس والبرونز، وهي المعادن الموجهة أساس لسك العملة وإنتاج الأسلحة الفردية والخاصة بتجهيز الأسطول الحربي والتي اعتمدت على المعادن التي جلبت من شبه جزيرة ايبيريا (يسرى الجوهرى، 1970، ص ص 114، 115).

ولم تتوقف الصناعة بقرطاجة بعد خسارتها لمستعمراتها في اسبانيا منذ مصدر المواد الأولية عام 206 ق.م، بل تواصلت بنشاط أكبر واستخدام طاقة بشرية هائلة أين تم الاستنجد بطبقة العبيد لأول مرة في تاريخ قرطاجة بهدف مضاعفة الإنتاج، وتم التركيز على الصناعة العسكرية بإنتاج أسلحة بأعداد ضخمة لمواجهة أي خطر محتمل، كما تم تنويع الصناعات الهادفة الى تلبية الاحتياجات الداخلية وتصدير منها الباقي لانعاش تجارتها (اصطيفان اكصيل، 2017، ص 45)، وحتى بعد انهزام قرطاجة عام 202 ق.م ضد روما التي فرضت عليها معاهدة زاما 201 ق.م والتي قيدتها عسكريا بعدم امتلاك أسلحة معينة بل وتسليم بعضها (Polybe, XV, XVIII, 3, 4)، إلا أن ذلك لم يمنع قرطاجة من إعادة تسليح نفسها وهو ما يظهر في جمعها قوة عسكرية قاربت 45000 رجل مسلحين لمواجهة ماسينيسا عام 150 ق.م، يحملون أسلحة مصنعة محليا منها ما ثقيل ومنها ما هو خفيف (Ernest Mercier, 1830, p 49).

أبدع الحرفيون القرطاجيون في تطوير الصناعات الفخارية المحلية التي شهدت رواجاً في العالم القديم لجودتها، حيث تم العثور على شواهد كثيرة في مواقع عدة لمخلفات هذه الصناعة من خلال التنقيب في المدافن، كما تشير الدلائل الأثرية على إقامة قرطاجة بعد عام 201 ق.م لمصانع عديدة لاسيما التي أقيمت في درماش ودويمس فضلا على أفران لها مواقد بيضاوية الشكل في عمق الأرض، فأنتج الحرفيون أدوات كثيرة منها الخواوي والأمفورات والجرار ذات المقابض، إضافة الى الأواني المنزلية كالقدور والصحون والأكواب والمصابيح الصغيرة (اصطيفان اكصيل، 2017، ص ص 48، 49)، كما برع القرطاجيون في صناعة السفن التي برعت قرطاجة في تصنيعها طوال فترة وجودها، ولا أدل على ذلم براعة حرفييها في إعادة تشكيل أسطولها الحربي والتجاري قبل اندلاع الحرب الرومانية-القرطاجية الثالثة، وبلغت قدرة استيعاب المينائين عام 149 ق.م مائتي سفينة حربية رغم ما فرض على قرطاجة بعدم امتلاكها سفن حربية، وأتقنوا في بناءهم السفن حتى استلهمت الكتاب القدامى التي وصفوها بالتجميع على الطريقة البونيقية (Coagmenta Punicana) وهي الطريقة التي أخذها الرومان عنهم (اصطيفان اكصيل، 2017، ص 47).

3- الهيمنة التجارية للقرطاجيين:

ارتبط القرطاجيون بالنشاط التجاري ارتباطا وثيقا منذ نشأة مدينتهم الجديدة عام 814 ق.م الى غاية سقوطها عام 146 ق.م، واحتكروها طيلة عدة قرون بعرض الحوض الغربي للمتوسط خاصة مع امتلاكها لأراضي جديدة على غرار جزر المتوسط واسبانيا (سايج مرزوق أحمد، 2021، ص 191)، ولم يتوقف النشاط التجاري بين قرطاجة ومستعمراتها حتى بعد فقدانها لصالح الرومان، حيث تم صنع العديد من المنتجات على غرار الأمفورات ب مواد أولية تم استيرادها من منطقة ايبيزا (Bernoit Fernauyd, 1961, p 326).

احتفظ القرطاجيون لأنفسهم بخبايا ممارسة التجارة ومختلف الطرق المؤدية لها مدة طويلة بل وایتم الأمر حتى بعد خسارتها للحرب الثانية ضد روما، وبلغ تجار قرطاجة الجيوب الضيقة بمناطقها القديمة بغربي المتوسط حتى

بعد خسارتها لأهم مستوطناتها (فرنسوا ديكريه، 1994، ص 105)، ولنا أحسن وصف للتجارة القرطاجية في نص لسترابون يقول فيه: "... يعيش سكان هذه الجزر عادة من انتاج قطعانهم على طريقة الشعوب البدوية أما بالنسبة لمنتجات مناجم القصدير والرصاص فإنهم يبادلونها، وكذلك جلود مواشيم يبادلونها بالفخار والملح والنحاس والأواني النحاسية التي يجلبها التجار الأجانب، ومن حيث المبدأ كان الفينيقيون وبعدهم القرطاجيون هم الوحيدون الذين أرسلوا السفن لتحريك التجارة في هذه الجزر، وأخفوا بعناية عن الآخرين وفي سرية تامة الطرق المؤدية لها، حتى أنه حدث في أحد الأيام أن تتبع بحارة رومان سفينة قرطاجية على أمل معرفة مواقع هذه المرافئ، لكن راكبي السفينة القرطاجية عرضوا سفينتهم للخطر وتمكنوا من الفرار مع حطام كبير بسفينتهم، وقامت الدولة بتعويضهم عن الأضرار والخسائر مقابل هذا العمل البطولي" (Strabon, 1897, III, 5, 11).

ويجب التنويه إلى أن قرطاجة تعاملت تجاريا مع العديد من شعوب العالم القديم لاسيما منها المتواجدة في الحوض الغربي للمتوسط، وبدل على ذلك المكتشفات خاصة الأمفورات القرطاجية الصنع والتي استخدمت في نقل سلعها، ومن المناطق التي تعاملت معها الساحل الكاتالوني، الساحل الغالي، جزر المتوسط منها إيبيزا وصقلية وكورسيكا وغيرها (Bernoit Fernaud, 1961, p 237).

خاتمة:

1. ختاماً لهذا العمل المتواضع الذي عالجنّا فيه نظرة عامة حول الجوانب الاقتصادية لقرطاجة،

خلصنا إلى جملة من الاستنتاجات نوجزها في النقاط التالية:

- يعتبر استقرار القرطاجيين ببلاد المغرب القديم نقطة تحول للفينيقيين، الذين عوضوا ما خسروه في الوطن الأم، فامتلكوا موارد الثروة والقوة الاقتصادية.
- تعتبر الزراعة عصب اقتصاديات الدول القديمة، لكن الملاحظ أن قرطاجة أهملت خلال القرون الأولى لوجودها وذلك نظراً للاهتمام البالغ بالتجارة، لكن معركة هيميرا 480 ق.م ضد الإغريق غيرت نظرة الدولة القرطاجية، وهو تاريخ بداية الاهتمام الفعلي بالزراعة التي برع القرطاجيون فيها ودونوا براعتهم في أمهات الكتب، على غرار كتاب الفلاحة لماغون.
- أولى الرطاجيون اهتمام كبير بالصناعة فأبدعوا في العديد من الصناعات، ولعل أبرزها صناعة السفن التي بقيت حكراً لهم إلى غاية القرن الخامس قبل الميلاد، فسيطروا لقرون عديدة على منافذ التجارة وطرقها الرئيسية وجمعوا ثروة هائلة، لكن لم يحافظوا عليها بسبب إهمال بناء القوة العسكرية التي تحمي تجارتهم.
- المنافسة الشديدة من طرف القوى القديمة خاصة الرومان عجلت بتراجع اقتصادها، حيث عمل الرومان على تقويض مساحتها الجغرافية أولاً في صقلية ثم بقية جزر المتوسط وصولاً إلى إسبانيا والخاتمة بتهديم قرطاجة والاستحواذ على أراضيها وعلى ثرواتها، لتنتهي هذه القوة الاقتصادية التي عمرت طويلاً في عام 146 ق.م.

المصادر والمراجع:

1. Polybe, Histoire générale, trad. Par Félix Bouchot (H), éd. Charpentier, Paris 1874
2. Strabon, Géographie, trad. Par Amédé Tardien, éd. Hachette, Paris 1867.
3. الشادلي بورويّة ومحمد الطاهر، قرطاج البونية تاريخ وحضارة، شركة أوربيس للطباعة، قصر سعيد 1999، ص 253.
4. حسام أبو سعدة، حضارة قرطاجنة، دار طبعة للطباعة، الطبعة الأولى، الجيزة - مصر 2011.
5. مادلين هورس ميدان، تاريخ قرطاج، ترجمة إبراهيم بالش، منشورات عويدات، الطبعة الأولى، بيروت 1981.
6. محمد الهادي حارش، التاريخ المغربي القديم منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر 1995.
7. اصطفان اكصيل، تاريخ شمال افريقيا القديم، ترجمة محمد التازي سعود، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط 2007.
8. جان مازيل، الحضارة الفينيقية الكنعانية، ترجمة ربا الخش، دار الحوار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، سورية 1998، ص 164.
9. يسرى الجوهري، شمال افريقية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة 6، الاسكندرية 1970، ص ص 114، 115.
10. أحمد سايج مرزوق، تداعيات الحرب الرومانية-القرطاجية الثانية على الحوض الغربي للمتوسط من نهاية القرن الثالث الى القرن الأول ق.م، أطروحة دكتوراه، اشراف نورالدين شعباني، جامعة خميس مليانة 2021/2020.
11. فرنسوا ديكريه، قرطاج الحضارة والتاريخ، ترجمة يوسف شلب الشام، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، 1994.
12. Ernest Mercie, histoire de l'Afrique septentrionale (Berbère) depuis les temps les plus recules j'usqua la conquête française 1830, tome I.
13. Benoit Fernaude, relations commerciales entre le monde Ibéro-Punique, et les midi de la Gaule de l'époque archaïque a l'époque romaine, In : revue des études anciennes, tome 63, N° 3-4, 1961.